﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ[1] وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ[2] أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملأ الكافر كل أسباب إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملأ ، وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده.

ولم يَدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ، لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب.

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمن منَ الضِّعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكَافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال الله - عَزَّ وجَلَّ - له إن سَدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان.

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [هود]

(١) غاب الشيء يغيب غيباً وغيبة وغياباً وغيوباً بعد فهو غائب ، والجمع غيب وغُيَّاب . والغيب كل ما غاب عنك ، وجمعه غيوب وفي التنزيل ﴿ .. عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

(٢) تزدري : تحتقر . والازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب . [لسان العرب]

ونلحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّل إلى الغَيْبة [1] ، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما في نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الظالمين .

واللام في كلمة ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ تعني الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجيء «اللام» بمعنى «عن» له نظائر [2] ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾ [سبأ]

وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت «اللام» بمعنى «عن» [3] .

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

---

(١) وهذا يعرف في أساليب البلاغة بالالتفات ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أي : من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول . (انظر الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي) (٣/ ٢٥٣) .

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً ، قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. (١١) ﴾ [الأحقاف] أي : عنهم وفي حقهم ، لا أنهم خاطبوا به المؤمنين ، وإلا لقيل : «ما سبقتمونا» .

(٣) اللام : حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدي عدة معان منها : انتهاء الغاية ، والملك ، وشبه الملك ، والدلالة على التمليك ، والدلالة على شبه التمليك ، والدلالة على النسب ، والتعدية المجردة ، والتعليل ، والتوكيد المحض ، والتقوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التعجب بغير قسم ، والدلالة على العاقبة المنتظرة ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التبيين ، وأن تكون بمعنى «بعد» ، وأن تكون بمعنى «قبل» ، وأن تكون بمعنى «مِنْ البيانية» ، وأن تكون للمجاوزة (بمعنى : عن) ، وأن تكون لتوكيد النفي ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عند» . . . انظر تفصيل ذلك في [النحو الوافي : (٢/ ٤٧٢ - ٤٨١)] .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :[1]

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجَدْل» أي : الفَتْل ، وفتل الحبل إنما يأتي من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أي مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضَمِّ شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بِلَفٍّ كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوى : « مفتول العضلات » ، أي : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أي : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلى فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتآزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهى تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

---

(١) جادل : خاصم بالحق والباطل . واستُعمل فى الباطل فى قوله تعالى : ﴿ها أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٩)﴾ [النساء] واستُعمل فى الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه حُجَّاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٩٧)﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المِراء[1] ، لأن الجدال إنما يكون لحقٍّ ، والمراء يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..(١٢٥) ﴾ [النحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي[2] تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١) ﴾ [المجادلة]

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء[3] .

---

(١) المراء : المماراة والجدال . وأصل المراء في اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة وغيرها من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراء والمماراة يحمل معاني الشك والريبة في الأمر مما يستدعي جدالاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا منهي عنه .

(٢) هي امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل مالي ، وأفنى شبابي ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك . قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١) ﴾ [المجادلة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٨) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..(١٢٥) ﴾ [النحل] أي : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ..(٤٦) ﴾ [العنكبوت] انظر : ابن كثير (٢/ ٥٩١) .

وهنـاك فـارق بين احـتـكاك الآراء ، وتحكُّك الآراء ، فـالتـحكك كالتلكُّك ، وهو الرغبة فى عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذى يوصل إلى الحق ، مثلما نحكُّ الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك [1] فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمِرَاء هو الجدَال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى [2] الضَّرع ، فحينَ يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهى حَلْبُ الضرع ، يظل مَنْ يحلبها مُمْسكاً بحَلَمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المريى» .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة «المراء»، وهو ما بعد ظهور الحق.

وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، الحِجَاج ؛ والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم.

وبعد أن مَلُّوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذى أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجىء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود]

وكأنهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مَخْرج من بيده أن يأتى بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هى ملْك لله سبحانه وتعالى.

---

(١) التحكك : التحرش والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أى : يتعرض لشرِّك . [اللسان - مادة : حكك] .

(٢) المريُ : مسح ضرع الناقة لتدر اللبن . والمرى : الناقة تدر على من يمسح ضروعها . وقيل : هى الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان : مادة - مرى] .

وجاء فى المصباح المنير : ماريته أماريه مماراة ومراء : جادلته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال : ماريته إذا طعنت فى قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقائل ، ولا يكون (المراء) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضاً ، وامترى فى أمر : شكَّ فيه . بتصرف صـ ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدِّر للعذاب أواناً ، ويقدِّر لكلِّ تعذيب ميلاداً ، ولا يَعْجَلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبَّى[(١)] عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ[(٢)] إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ[(٣)] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدُّد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : «إن جئتنى غداً أقبل اعتذارك إنْ كان معك والدك» .

---

(١) تتأبى : تتمنع وترفض الانصياع والطاعة . ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرَّى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع ودلَّه عليه . ونصح له الود : أخلصه . ونصح لله : أطاعه وأخلص لدينه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سراً ولا علناً . ومن النصح بمعنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ .. وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف] ، ويقول : ﴿ .. وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم] .

(٣) أغواه : أضلَّه وأوقعه فى الغى والضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخِّر ، ولكنه كان يجب أن يتقدَّم .

وفي الآية الكريمة - التي نحن بصددها - جاء الشرط الأول متأخِّراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عبادَه ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هي الضلال[1] والبعد عن الطريق المستقيم .

والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ[2] (٢)﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿.. وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

ونحن يجب ألاَّ نقع في الآفة التي يخطيء البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معانٍ متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معاني اللفظ لنأخذ اللفظ المناسب للسِّياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا[3] (٥٩)﴾ [مريم]

---

(١) ضَلَّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشيء : خفي وغاب فهو يأتي لازماً كما في المثال السابق .
ويأتي متعدياً مثل : ضل المسافرُ الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغواية ، وأثبت له أنه هو الناطق منه وبه وله ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وما ينطق عن الهوىٰ (٣) إن هو إلا وحي يوحىٰ (٤)﴾ [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيّاً ، وغوى يغوى غواية : انهمك في الجهل ، وهو ضد الرشد . وغوى بمعنى خاب وضلَّ ؛ لأنه انهمك في الجهل .

(٣) الغي : سمى به واد في جهنم وفُسِّر بذلك قوله : ﴿.. فسوف يلقون غيا (٥٩)﴾ [مريم] أي : جزاء الغي ، أو يدخلون وادي الغي في جهنم [القاموس القويم].

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأن غَيَّهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمَّى العذاب باسم مُسبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسيء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمَّى ما يلقاهم من العذاب سيئة[(١)] .

وكذلك «الغَيُّ» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فآدم عليه السلام حين تَنَكَّبَ[(٢)] عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاَّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿.. وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته[(٣)] .

---

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] ؛ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .. (٥٤)﴾ [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (٣/ ٢٨١) .

(٢) نكب عن الشيء وعن الطريق : عدل . وتنكَّب فلانٌ عنَّا : مَالَ عنَّا . وتنكَّبه : تجنَّبه . [انظر : لسان العرب] . ويقول تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾ [المؤمنون] . أى : مائلون منحرفون عنه .

(٣) السوءات : جمع سوءة : وهي كل ما يقبح إظهاره وينبغي ستره ، قال تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستعِداً لاستقبال المنهج والوَحْي.

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلَّف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى.

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار [(١)] ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضَلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووَجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد.

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضلّ [(٢)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]. ويقول سبحانه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. فإن الإنسان مخير فى البدائل ، أما القضايا التى لا يستطيع تبديلها فهى خصوصية الخالق ، ويفهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإثبات حق الاختيار له.

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان] ، فالله قد جعل الإنسان مُهيّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلَّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكراً لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمناً. وإما كافراً بها فيكون كافراً.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[1] قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

جاء هذا القول فى صُلْب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمَّد الذى يناقض واقعاً.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التى تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس فى المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحدُّ من حريتك ، ولكنه فى الواقع يُحقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميكَ من أن يعتدى الآخرون عليك.

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود] أى : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] أى : مكذوبات - كما تدَّعون . [القاموس القويم].

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل فى أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء.

وإن لم يكن قـد افتراه ، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم [1] باتِّهامه أنه قد افـترى.

وأسلوب الآية الكريمـة يحذف عنهم البـراءة فى الشـطر الأول منهـا ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعليَّ إجرامى وأنتم برءاء منه ، وإنْ لم أفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء.

وجـاء الحـذف من شِقٍّ المقـابل من شِقٍّ آخـر ، وهـذا مـا يسـمَّى فى اللغـة «الاحتباك» [2].

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفـئة القليلة تكون قلَّـتُهـا فى الأفـراد والعَـتَـاد وكلٍّ لوازم الحـرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرَتها فى العُدَّة والعَدَد وكلٍّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلب بإذن الله تعالى.

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى.

---

(١) آثام الذنوب فيما افتروه.

(٢) الاحتباك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى أن يحذف نظيره فى الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (١٢) ﴾ [النمل]. والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثانى «وأخرجها». وقال الزركشى : هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]. والتقدير : «إن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون» [الإتقان فى علوم القرآن : ٣/ ١٨٢ ، ١٨٣].

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت [1] والشيطان ، وهذا يسمَّى « الاحتباك » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ .. قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فلم يَقُلْ : « عَمَّا تُجرمون » . فلم يقابل إيذاءهم القوليَّ والماديَّ له بإيذاء قوليٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿ .. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التي أنزلها الله على العالم كله .

---

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان ، الصنم ، وكل ما عبد من دون الله ، وكل ما يغرى بالشر والداعي للضلال والفتنة .